

الحلقة (٢٧)

موضوع هذه الحلقة تفسير الآية (١٩٩) من سورة البقرة، قال تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

سبق الحديث في الحلقة السابقة الوقوف بعرفة وأنه ركن من أركان الحج، بل هو الركن الأعظم قال عليه الصلاة والسلام: (الحج **عرفة**) قال تبارك وتعالى: {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ} وتحدثت أيضاً عن واجب من واجبات الحج ألا وهو المبيت بمزدلفة، وتسمى جمعاً، قال تبارك وتعالى: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} وبينت هدي النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وما يترتب أو ما يمكن أن يؤخذ من الأحكام من الآية هنا ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول (لتأخذوا عني مناسككم).

هذه الآية يقول الله تبارك وتعالى {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} كانت قريش وهم الخمس لهم عادات ينفردون بها عن غيرهم من العرب، مثلاً أنهم كانوا يطوفون في ثيابهم، أما غيرهم من العرب فكانوا لا يطوفون في ثيابهم، وإنما من كان يعرف له شخصاً من الخمس من قريش أعطاه ثوبه فطاف به، يعني إما أن يشتري منه أو أعطاه هدية، المهم أنه لا يطوف بثيابه لا بد أن يأخذ منه الخمس (وهم قريش) أهل البيت، أما الذي ما عنده دراهم ولا يعرف أحداً يعطيه، يطوف عريانا بالبيت، هذا لا شك من تعنتهم واستعلائهم على العرب ومن ضلالهم وجاهليتهم، ومن ذلك أيضاً ما ذكرته عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كانت قريش ومن يدين بدينها وهم الخمس يقفون عشية عرفة بالمزدلفة، -كانوا لا يخرجون عن حدود الحرم- ويقولون (نحن قطن البيت) -أي أهل البيت- وكان بقية العرب والناس يقفون بعرفات فنزلت هذه الآية).

الناس كانوا يذهبون إلى عرفة شعائر كانت معروفة عند العرب، أما قريش كانت لا تخرج خارج الحرم، ويقولون نحن آل البيت لا نخرج، فينتظرون الناس حتى يرجعوا من عرفات وهم لا يخرجون، وهذا لا شك من الجهل والضلال، النبي صلى الله عليه وسلم وقف بعرفة وقال (وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف **وارفعوا عن بطن عرنة**) والوقوف بعرفة ركن من أركان الحج، الزجاج رحمه الله "ذكر أنهم سمو الخمس لأنهم تحمسوا في دينهم، أي تشددوا في دينهم، والحماسة الشدة في كل شيء، لكن هذا من ضلالهم وجهلهم كانوا لا يخرجون إلى عرفات، ولذلك لما خرج صلى الله عليه وسلم بعض الناس يقولون هل سيخرج أم لا يخرج؟ وبالفعل خرج صلى الله عليه وسلم وتعدى حدود الحرم وذهب إلى عرفة وعرفة معروفة أنها من الحل، ووقف بها وقد بينا هدي النبي عليه الصلاة والسلام في (الحلقة السابقة).

قوله تبارك وتعالى {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} اختلف في المراد بالناس على أربعة أقوال:

• القول الأول: أنهم جميع العرب غير الحمس وهم قريش، ويدل عليه حديث عائشة السابق وهو قول عروة ومجاهد و قتادة، إذن أفيضوا من حيث أفاض الناس العرب كلهم عدا قريش.

• القول الثاني: أن المراد بالناس هنا إبراهيم الخليل عليه السلام، قاله الضحاك بن مزاحم يعني أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم الخليل عليه السلام.

• القول الثالث: إن المراد بالناس آدم أنه أفاض، يعني أفيضوا من حيث أفاض آدم والله أعلم.

• القول الرابع: إن المراد بالناس أهل اليمن أنهم كانوا يفيضون من عرفات، على كل حال، أفيضوا من حيث أفاض الناس (العرب) ماعدا قريش، أفيضوا: أي ادفعوا وارجعوا من عرفة، من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم، هذا قول، وبلا شك يدخل من ضمن من أفاض إبراهيم عليه السلام إذا ثبت هذا، وأيضا من كانوا يخرجون عدا قريش الحمس، من المخاطب في قوله {أَفِيضُوا} بهذا الأمر؟ اختلف في المخاطبين في ذلك على قولين:

• القول الأول: أنه خطاب لقريش، لأنهم كانوا يخرجون إلى حدود مزدلفة ولا يخرجون أكثر من ذلك ، وهو قول الجمهور.

• القول الثاني: أنه خطاب لجميع المسلمين، الراجح هو القول الثاني لجميع المسلمين، ويدخل في ذلك من كان قرشياً، بعضهم قد يقول هل أخرج أم لا أخرج؟ فاحمد الله ما دام الإنسان دخل في دين الإسلام فإنه يلتزم بهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي خرج إلى عرفة، ووقف بها إلى أن غربت الشمس، ثم دفع من عرفة إلى مزدلفة، وبات بها إلى الفجر، ثم دفع إلى منى كما سبق بيانه.

قوله تعالى {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} هل المقصود هنا الإفاضة من عرفة إلى مزدلفة؟ أو الإفاضة من مزدلفة إلى منى؟ (هنا خلاف): المعروف بأن مراحل الحج مناسك وشعائر يتنقل بها الشخص من مكان إلى مكان.

• القول الأول: الإفاضة هنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ هي الإفاضة من مزدلفة إلى منى صبيحة يوم النحر، هكذا الترتيب الآية الأولى {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ}، وهنا {ثُمَّ أَفِيضُوا}، يعني عندنا إفاضتان، الإفاضة الأولى من عرفات إلى مزدلفة، {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}، وهنا الإفاضة الثانية، {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} يعني الإفاضة من مزدلفة إلى منى، هذا القول الأول: أن المقصود بالإفاضة هنا، ظاهر اللفظ أن الإفاضة من مزدلفة إلى منى صبيحة يوم النحر، هذه الإفاضة الثانية.

• القول الثاني: جمهور المفسرين: على أن الإفاضة من عرفات، يذهب كثير من المفسرين إلى أن الإفاضة الثانية هي الإفاضة من عرفات، طيب كيف توجه الآية؟ عندنا الآن إفاضتين وكلها من عرفة إلى مزدلفة؟ وظاهر الكلام لا يقتضي ذلك، كيف يقال: {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ

المَشْعَرِ الحَرَامِ { ثم أيضاً "ثم أفيضوا من عرفات" الحقيقة ظاهر اللفظ لا يستقيم مع قول الجمهور، **فكيف يوجه؟** هنا التوجيه أن في الآية تقديم وتأخير.

ما هو التقدير؟ التقدير "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام" يعني في الآية تقديم وتأخير، فكأن هذه الجملة في الآية ١٩٩ مقدمة على الجملة في الآية ١٩٨، فيكون التقدير **{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}** يعني من عرفات إلى مزدلفة هذا بناء على قول عائشة أن الحرس ما كانوا يخرجوا إلى عرفة، فأفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتكم من عرفات **{فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}** يعني أنتم الآن أفضتكم من حيث أفاض الناس، طيب إذا أفضتكم **{فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ}**، على كل حال هما قولان في الآية.

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} - الحقيقة قد يقول قائل: **ما مناسبة ذكر الاستغفار؟**

الإنسان الآن حاج، ويعمل أعمال عظيمة، مناسك فاضلة ثم يؤمر أن يستغفر الله جل وعلا، هل هو وقع في ذنب؟! هل زل في شيء؟! هو الآن في طاعة، فقل في هذا **جوابان:**

■ **التوجيه الأول:** نعم قد يقع من الإنسان تقصير ولو كان في مناسك الحج، قد لا يطبق السنة على التمام، قد ينقصه الإخلاص، قد يقع في معصية، قد يقع في فسوق، كما قد جاء في الآية التي قبل "فلا رفث ولا فسوق" قد يكون وقع في معاصي، فهو يستغفر الله وكلنا خطاء، وخير الخطائين التوابون، هذا التوجيه الأول.

■ **التوجيه الثاني:** أنه هكذا جرت العادة في الكتاب والسنة أنه تختم الفرائض بذكر الله والاستغفار، فمثلاً عندنا الصلاة **{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ}** هنا أمرنا بذكر الله، وجاءت السنة أنه النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم قال: **(أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ثَلَاثًا، اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)**، فدل هذا على أن الفريضة تختم بالاستغفار، أيضاً في الصيام الله جلا وعلا لما ذكر أحكام الصيام قال: **{وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** لذلك من السنة أنه إذا أعلن العيد يبدأ الصائم ليلة العيد وصبيحة العيد بالتكبير، وجاء ذلك في روايات وصيغ في السنة مثبتة، وهنا أيضاً في الحج أنت مأمور بالاستغفار، هكذا كل فريضة يعقبها الاستغفار، والإنسان لا يدعي لنفسه القبول وهو معرض للتفريط وللغفلة، بل قال بعض السلف: "استغفارنا يحتاج إلى استغفار" فالخطأ والزلل كثير، والتوفيق بيد الله سبحانه وتعالى، والمؤمن مطالب بأن يحسن الظن بالله عز وجل، وجاء الآن وترك الدار والأهل وترك الزوجة والأولاد والمال والأحباب، وجاء يبتغي وجه الله عز وجل.

وأذكر في هذا المقام أن الحافظ بن رجب رحمه الله في لطائف المعارف ذكر أن رجل جاء إلى أبي حازم سلمة بن دينار رحمه الله تعالى، فقال: يا أبا حازم من أشقى أهل هذا الموقف؟ -موقف عرفة موقف

عظيم، يباهي الله فيه أهل السماء، يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً- فقال يا أبا حازم من أشقى أهل هذا الموقف في يوم عرفة؟- نسأل الله السلامة والعافية- قال: "من ظن أن الله لا يغفر لأهل هذا الموقف" أعوذ بالله هذا ظن السوء الذي يظن أن الله لا يغفر لهم، وأن الله لن يتجاوز عنهم، هذا ظن السوء، نحن لا نوجب على الله ولا نتألى على الله ولا نلزمه، حاشا وكلا ولا والله، الفضل من الله أولاً وأخيراً، له المنّة في الأولى وفي الآخرة، لكن ينبغي للمسلم خاصة أن الحاج يحسن الظن بالله عز وجل تبارك وتعالى، ومن إحسان الظن في الله عز وجل أن تبادر بالأعمال الصالحة، أن تتوب، أن تستغفر الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى في هذه الآية {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أكثر من الاستغفار أكثر من ذكر الله عز وجل، إن الحاج لعل الله جل وعلا أن يختم لك بخير، ولذلك ينبغي للحاج خاصة ولله الحمد أن أيام منى أيام التشريق أن يحرص على ذكر الله تبارك الله، وتعالى كما سيأتي بيانه.

ختمت الآية بذكر اسمين من أسماء الله عز وجل وهما الغفور الرحيم {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} والغفور: اسم من أسماء الله عز وجل، ومعنى مغفرة الذنوب: سترها والتجاوز عنها، ويستتر على عبده ويتجاوز عن ما وقع فيه من أخطاء، والغفور قال أهل اللغة الغفور: هو الذي يكثر المغفرة، لأن بناء المفعول للمبالغة منها على وزن فعول، وغفور على وزن فعول مثل قول صبور وضروب، وهي تدل على المبالغة.

الاسم الثاني: الرحمة وهي من صفات الله سبحانه وتعالى ومن أسمائه عز وجل، ورحمته وسعت كل شيء، ورحمته سبحانه سبقت غضبه، وجعل الله الرحمة مائة جزء، أنزل منها جزءاً واحداً يتراحم به الخلائق، فتعطف الأم على ولدها، وترفع الدابة حافرهما عن صغيرها، وأبقى عنده سبحانه وتعالى ٩٩ رحمة يرحم بها من يشاء من عباده، فهو سبحانه وتعالى غفور رحيم، أعود مرة أخرى وأقول أن ختام الحج المبيت بمنى ليل التشريق، وفيها ذكر الله سبحانه وتعالى، وإكثار من ذكر الله، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل) وهدى النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر، فسر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وسأل علي رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال: (هو يوم النحر) وإذا فسر القرآن بالسنة فلا معدل عنه بعد ذلك.

المهم في ذلك اليوم رمى عليه الصلاة والسلام جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحر هديه، ثم حلق رأسه، ثم طاف بالبيت، وأعمال الحج في ذلك اليوم على التيسير، على الترتيب أو مقدم بعضها على بعض لا حرج، ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فعل في ذلك اليوم قدم أو أخر إلا وقال: (افعل ولا حرج)، فلو أن الإنسان طاف قبل أن يرمي، أو حلق قبل أن يطوف، لا حرج عليه في ذلك، والعلماء في ذلك يقولون إن التحلل على ذلك نوعين: هناك تحلل ناقص وتحلل كامل.

التحلل الناقص: أن يفعل اثنين من ثلاثة، والثلاثة هي رمي جمرة العقبة، والحلق أو التقصير، والطواف بالبيت، ويسمى التحلل الأول إذا فعل اثنين من ثلاثة فقد تحلل التحلل الأول، والتحلل الأول يحل له كل شيء ما عدا النساء، يلبس المخيط ويقلم أظافره أو يتطيب على السعة.

والتحلل الكامل: إذا فعل الثلاثة كلها حل التحلل الثاني، يحل أن يفعل كل شيء ويجوز أن يأتي أهله. ويبقى الحاج في منى يبيت ليالي التشريق، والنبي صلى الله عليه وسلم بات بمنى ليالي التشريق وهو كما هو معروف عند العلماء أنه واجب من واجبات الحج، يبيت الحاج ليلة الحادي عشر وليلة الثاني عشر إذا كان متعجلاً ينصرف، وإذا تأخر بات ليلة الثالث عشر، ويشغل في ذلك اليوم بذكر الله عز وجل وتلاوة القرآن وبالإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والرمي ينتهي إلى غروب الشمس في ذلك اليوم، ويجوز أن يرمي في الليل لضيق أو لخوف الزحام أو غير ذلك.

يبيت يوم الحادي عشر فإذا زالت الشمس، ذهب إلى الجمرة الأولى ورمها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ثم يتقدم ويدعو الله عز وجل، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا مقام من أنزلت عليه سورة البقرة، ثم يذهب إلى الجمرة الوسطى ويرمها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ثم يتقدم ويدعو الله سبحانه وتعالى، ثم يذهب إلى جمرة العقبة ويرمها بسبع حصيات ولا دعاء بعدها، ويبقى في منى، والرمي يستمر من الزوال إلى غروب الشمس، ويجوز أن يرمي في الليل إذا خاف مشقة أو زحاما أو تعباً فلا حرج عليه، ويبيت ليلة الثاني عشر أيضاً فإذا بات في منى ليلة الثاني عشر وزالت الشمس يبدأ بالرمي بعد الزوال، يرميها بسبع حصيات الجمرة الأولى ثم الوسطى ثم العقبة كما فعل في اليوم الحادي عشر، إذا رغب التعجل فهذا له، وإذا رغب أن يبقى وهذا هو الأفضل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم أنه تأخر إلى اليوم الثالث عشر.